سيوفا

للقصصي الروسي جورنادا أما إسكير

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

عرفت (بياداسا) منذ زمن طويل . لقد كنا نذهب إلى مدرسة واحدة ، ولكني أذكر أنه كان في فرقة أعلى ؛ وكان يومئذ يقطن مع عمته ، وكانت عمته جارتنا . وما زلت حتى اليوم أذكر تلك الشجرة العظيمة الممتدة الأغصان ، شجرة التمر الهندي التي كانت تقوم وسط الفناء قوية فينانة ؛ ولقد كنت في الأمسيات ألعب مع لداتي تحت هاتيك الشجرة ، وكان بياداسا أحد هؤلاء .

ولقد علمت منذ سنوات أربع أو نحو ذلك ، أن بياداسا أصبح زوجا ؛ ثم إني لقيته وزوجته في دكان بمدينة كولومبو . ولقد ظلت على وجهه تلك النظرة الشاحبة الفاترة التي كانت تتراءى عليه وهو طفل ؛ ولقد أحسست أنها اليوم أكثر ظهورا ؛ وإن النظرة إلى وجهه لتنبئ أنه من أولئك الذين صاروا أزواجا وآباء . ولما لقيني كانت ابتسامته لي في جهد ؛ ومع أن تلك الابتسامة كانت وليدة جهد ، فقد أحسست فيها شيئا من الصدق ؛ وكانت زوجته رقيقة هزيلة وعلت لمحيي لأول وهلة ذات حسن . وإن الصورة التي مثلت بها يدها ، مترددة أو تكاد تتردد ، حين قدمني إليها زوجها ، ثم استردادها نظرتها إلي في سرعة ، قد أوحت إلي أنها ذات دعة وحياء .

وكان لقائي ببياداسا مرة ثانية حين غيرت مسكني فوجدتني جاره اللاصق ؛ وكان لا يفصل بين الحديقتين إلا سياج من الأغصان الكثيفة المزهرة ، ولم يمض زمن طويل منذ مقدمي إلى منزلي الجديد ، حتى اعتدت أن أقضي العشيات معه . وكان بياداسا طيب القلب ، ولكنه كان فيما يبدو لا يحب المرح والمجون . ولست في الواقع حتى اليوم أعرف ما يحب وما لا يحب ، وكان من عاداته أن يظل يقرأ الصحف منذ عودته من عمله حتى ساعة الطعام

ولقد كنت أعجب ماذا عسى أن يكون في جريدة من مثل هذا الإمتاع ! ومهما يكن في الأمسيات من جمال وإغراء ، فلست أذكر أمسية خرج فيها من داره . ولقد كنت أدعوه في مثل هاتيك الأماسي إلى قليل من الشي ، ولكنه كان يرغب أبدا عن ذلك

ولما توثقت المعرفة بيني وبين بياداسا وزوجته ، أخذت ألاحظ أن سوما لم تكن كما ظننت حين رأيتها أول مرة ذات حياء. ولقد وجدت من العسير أن أوفق بين ما أراه منها وبين ماوقع في نفسي من أول مرة حين رأيتها

كانت على خلاف بياداسا قد تعودت أن تبرح المنزل أكثر الأمسيات . ولقد علمت بعد أيام قلائل أنها كانت أحيانا ترجع إلى بيتها متأخرة . ثم إني رأيتها مرة أو مرتين حين كنت أقرأ كتابا إلى جوار نافذتي عائدة مع بعض صاحبات لها أظنهن من جاراتها . ولقد سمعت كلامهن وضحكاتهن ، وما صادفتني مرة إلا لوحت لي بيدها مبتسمة ابتسامة صادقة

وبعد ثلاثة أشهر منذ أن تطورت صداقتنا إلى درجة من الألفة ، قص علي بياداسا كيف قضى حياته منذ أن ترك المدرسة . وجاء في معرض قصته أنه استؤجر في عمل بكولومبو بمجرد أن غادر المدرسة ، وأنه وإن لم يكن يحس ميلا إلى الزواج ؛ قد استجاب إلى إغراء والديه فتزوج سوما . وكانت سوما من أسرة ميسورة الحال من إقليم التلال . ولقد أتيح لها قدر كبير من التربية والثقافة . ولقد أنجبت سوما غلاما بعد زواجهما ، ولكنه مات بغتة وهو في الثالثة من عمره

وبعد أن أصغيت لحظة إلى هذا الحديث عجبت ماذا جعل بياداسا يبحث عن عمل مثل هذا تابعا تابعا للحكومة؛ ولو أنه كان لي مثل ماله من نزل، مارضيت أن أخدم تحت إمرة سيد ؛ وإني أشعر الآن أن عدم قدرته على أن يظهر شخصيته في أية صورة أخرى هو الذي جعله يبحث عن مثل هذه الوظيفة

وحل الفصل الذي أزهرت فيه الأشجار كل الإزهار ؛ وارداد الأماسي بهجة ، وبانت الشجيرات في حديقتهم وفي حديقتي محملة بالأزهار ؛ وأحسست يومئذ أني إلى صحبة سوما في نزهاتها أكثر ميلا مني إلى استماع صوت بياداسا ؛ وأحسست كذلك أن سوما تحب أن تقضي الأماسي معي

وكنت بدأت أشعر منذ وقت طويل أنها لم تكن حسناء فحسب، وإنما كان حولها نوع من السحر خاص بها . إنك لو فحصتها جملة فلا أظن أنك واجد فيها شيئا فائق

الجمال وإن عيبها كانتا من السعة بحيث لا تعدان مناسبتين ، ولكنى وجدت فيهما شيئا شديد الجاذبية ؛ وكانتا تبدوان كما لو أن الدموع تريد أن تتساقل منهما فى أية لحظة . وإنى لأحس أن النساء حين أكثرهن جمالا يلحن أكثر حسنا حين تفتر الدموع أعينهن . ولم يكن أنفها كذلك أشم أو سويا ؛ ولم تكن تقتناها رقيتين ولا حمراوين كزهرة اللوتس ؛ وكانت أصابعها الدقيقة الأنامل تبدو رقيقة لطيفة ، ولكنها كانت من الدقة بحيث لا يمكن أن تعد حسنة التكوين أو جميلة . وكان حديثها كحديث طفلة بريئة ، وكان يشاب طبيعيا لا تكلف فيه حتى لقد كنت أنسى ما يتصرم من الوقت حين كنت أجاذبها أطراف الحديث ؛ ولم تتناول فى حديثها ما يتناول أكثر النساء عادة من مسائل ، وإنما كان يدور حديثها حول أمور ذات صبغة فلسفية أو أدبية ؛ وكثيرا ما أثر فى نفسى أنها ذات خبرة بأمور لا يفهم بها إلا ذوو العقول الرزينة

على أننى أذكر أنها سألتنى ذات مرة عما إذا كنت أحببت امرأة قط ؛ ولقد ربكنى سؤالها لحظة ، وذلك لأنى رأيت أنه مما لا يليق بسيدة صغيرة مثلها أن تسأل سؤالا كهذا ؛ ثم أجبتها فى حالة تكاد تكون عصبية « كلا » ، وإنى أعتقد أن ما ذكرته هو الحق فإنى لا أكاد أذكر أنى أحببت امرأة . لقد اتجهت نفسى فى المدرسة إلى فتاة كانت معى فى حجرة الدراسة ، ولكنى أشعر الآن أن ذلك لم يكن مثل ما يكون من حب بين الرجال والنساء.

ولما كنا فى زمن الزهر ، وكانت خمائل الورد فى حديقتهم تتفتح كأمها ، فقد اعتدت كل صباح وأنا إلى جوار نافذتى أنتظر حتى يحين موعد ذهابى إلى عملى ، لأرى سوسا بين خمائل الزهر تقطف تلك الورود ؛ وكانت ترسل إلى كل صباح باقة من الزهر ؛ وكانت إذا وجدتنى لا أزال فى نافذتى تسعى إلى بشئ من الزهور التى جمعتها

وكنت ذات مساء أقرأ كتابا فى حجرتى ، ولم يكن بى ميل إلى مبارحة البيت لأنى عدت متأخرا من عملى ؛ وما هى إلا لحظة حتى سمعت شخصا يطرق الباب طرقا خفيفا ، ولما فتحته ألفيت سوسا واقفة وحدها !

وسألتنى قائلة « ألا تخرج الليلة لتمشى قليلا يا نيل ؟ إنى أستشعر الوحدة اليوم جدا » وأجبتها « لقد كنت اعتزمت البقاء ولكن إذا كنت تريدين فسآتى معك »

ثم أغلقت من خلفى باب حجرتى

ومشينا مسافة قصيرة فى صمت ؛ وكان

ذلك قبيل الغروب ؛ وكانت تقع غير بعيد من منزلنا بقعة خضراء أشبه بالحديقة لما كان ينمو فيها من وحشى الشجر ؛ ورأينا القمر بازغا يسكب شعاعاته الفاترة الفضية على رؤوس الشجر ؛ وأحدثت نسمة خفيفة باردة حفيفا بين الأغصان ؛ وأحسست أن سوما تقبض يدها على أصابعى ، ورأيت أنه يجب على أن أجذب يدى من يدها ، ولكنى لم أجد لدى من الإرادة ما يعينى على ذلك . ولقد سرى فى بدنى شعور عجيب بالسعادة نتيجة لهذه اللمسة ، ومشت بى جانبى دون أن نتكلم ، واستطعت أن أرى نور القمر الهادئ على وجهها وعلى ردائها الأبيض . ولقد أضاء وجهها فى نور القمر ، وأبصرت خصلات من شعرها تتألق وتتراقص بفعل النسيم . ثم قطعت الصمت بعد أن مشينا ساعة طويلة بقولها :

— ألا تعود أدراجنا ؟ فأومأت برأسى موافقا إياها

ولما استدرنا راجعين كنت أرى ما يواجهنا من ظلال طويلة ممتدة ، وكان بالى فارغا أتم فراغ . ولم أكن أسمع إلا نفسها وحفيف ثوبها كلما خطت . ومس النسيم البارد صفحة وجهى ؛ وازدادت سوما اقترابا منى ؛ وأحسست خيفة فى نفسى من لمس جسمها النحيل اللطيف

ولما اقتربنا من منزلها شممت رائحة أزهار الحديقة ؛ وخطت سوما إلى الفناء قائلة « أدخل يا نيال » وراعتنى دعوتها إذ وجدتها غير لائقة ، وأحسست كما لو كنت أريد أن أنطلق عدوا ولكنى لم أجد لدى القوة لأعمل ، فتبعتها .

وبغتت أشعة القمر من خلال الأغصان فأمرضنى وأغرقت سوما ؛ وكنا وحيدين فى الشرفة المكشوفة ؛ وكان باب غرفة بيداسا مغلقا ؛ وجلست سوما صامتة ساكنة كتمثال من الحجر ؛ واستطعت أن أرى وجهها تنيره أشعة نور القمر . وكان ما يرتسم من معان على محياها عجيبا جنيا يكاد يخيفنى ؛ وجلست صامتا على كرسى فى طرف الشرفة ولم أعد أقوى على النظر إلى عينيها . وكان يتنازعنى بين الانفعالات متصارعة . ثم إن صمتا . أتبين كنهه قد قضى على ما فى من قوة .

ودانت فى بطء نحو مقعدى ، ورأيتها وهى تقترب منى كما لو كنت فى حلم ، وجلست على متكأ مقعدى ؛ وكنت أحس تنفسها ؛ واستحممت كل ما وسعنى من بقايا شجاعتى ونظرت نظرة إلى وجهها ؛ ورأيت محياها قد توقد احمرارا ، وكانت فى عينيها نظرة غريبة واختلجت شفتاها ؛ ودق قلبى دقات سريعة ؛ ولم أحس من النوازع إلا أن

أنهض فأعدو بعيدا عنها ؛ ولكنى قبل أن أفعل ذلك أحسست بيديها تشتبكان خلف عنقى . ثم إنها أقبلت بوجهها على حتى داعبت خصلة من شعرها جبهتى

وامتلأت عيناى فجأة بالدمع ، ولم يكن فى وسعى أن أدفع ذلك ، ثم إنى غطيت وجهى براحتى .

ولست أدرى لماذا جاء مسلكى وقتئذ على هذه الصورة ؛ وما يسلك أحد غيرى هذا المسلك فيما أظن . ربما كان مرد ذلك إلى مزيج من الفرح العظيم والأسف . ولقد يكون مرده إلى أن ذلك كان أول موقف وقعت لى فيه تجربة ما مع امرأة . .

لقد ابتعدت فى بطء عنى ووقفت دون أن تنطق بكلمة عند مدخل الشرفة ؛ ولبثت مستغرقة فى تفكير عميق ، وقد استندت إلى الباب وأسندت ذقنها براحتها . وظلت على تلك الحال لحظة ، ثم رأيتها تدخل الحجرة وتجذب الباب من خلفها جذبة قوية .

وغادرت أنا منزلها وآويت مسرعا إلى منزلى . ولما ذهبت إلى مضجعى أحسست كأن عقلى قد اختلط . لقد ملأنى مسلكها عجبا ، وكان أعجب منه مسلكى حيالها ؛ وحين فكرت فى مسلكى أحسست أن الخمرة سيئة وحسى ؛ ولكنى لست أنكر أن ثمة شعورا من الغبطة كان يكمن فى زاوية من زوايا عقلى . إن ما بعثه ملمس خديها ويديها من نشوة فى نفسى قد أتاح لى تجربة لم أذقها من قبل .

وخيل إلى أن وجهها لا يزال يحدق فى وجهى ، وأن ما ارتسم على محياها مما لا يمكن اكتناه سره لا يزال ماثلا فى عينيها . لقد ابتعثتا شكا فى نفسى لا يزال يلازمنى : ذلك أنى أخذت أتساءل : هل تسلك هذا المسلك كذلك مع غيرى ؟ لقد رأيتها واقفة لدى عتبة الباب تحملق فى غير معنى . ولم أستطع حتى أن أتخيل ماذا كانت تعبر عنه ملامحها فى تلك اللحظة .

واستيقظت فى الصباح على نحيب خادمتى ، ولست أذكر أنها أيقظتنى قط على مثل هذه الصورة من قبل

« سيدى لقد ماتت السيدة جارتنا ليلة أمس » .

وأذهلنى الخبر فوثبت من سريرى سائلا فى لهفة « من ؟ »

« جارتنا السيدة يا سيدى »

« ومتى كان ذلك ؟ »

« لست أدرى فى أى وقت : لقد وجدها السيد ميتة هذا الصباح »

ولم أسأل أكثر من هذا إذ لم أجد لدى شجاعة لذلك . لقد قهرنى الخوف والحزن وانتهيت إلى أنها قتلت نفسها نتيجة للقائنا

ليلة أمس ، واظن أن بياداسا رآنا وأنه سألها عن ذلك ؛ وكان ذلك ماجعلني أخشى لقاء زوجها .

« بعد لحظة جاءني بياداسا ليراني ؛ وإن مجرد مرآه قد قذف في نفسي الرعب ؛ وفكرت في أنه سوف يلاحظ عيني تفقدان بريقهما ووجنتي تسبغهما الحمرة ، على أنني تجرأت فحدثته واستفهمته

قال بياداسا إنه حينما ذهب إلى حجرتها في الصباح وجدها ميتة في سريرها وإنه ليس يدري سبب موتها . لقد آوت إلى فراشها متأخرة عن موعدها كل ليلة ؛ ولقد سطرت كتابا أعطته لخادم ليلقي به في البريد لساعته ، وكان ذلك كل ما استطاع بياداسا أن يجمعه من نبأ حول موتها ...

وألقى بالى البريد كتابا في اليوم التالي فتحته فإذا هو من سوما وإذا بها تقول ،

« يجب أن أوضح لك بادئ الأمر أني أكتب هذا بدافع الشفقة عليك ، فإني على يقين من أنك حين تسمع بنأموتي سوف تعود بالتبعة على نفسك . ولكن يجب ألا تعتقد ذلك فلقد قتلت نفسي لأني لم أعد أجدني الحياة فائدة . وإنك لو عدت ماضي فلسوف توافقني على ما فعلت

قد تكون عجبت أني كنت امرأة فاضلة؟ لقد تزوجت منذ سنوات ست ، وإني أشعر أن الواجب يقتضيني أن أبين لك مبلغ ما اتفق لزوجي من فضل كرجل ، وإنه ليصعب أن يوجد زوج له مثل صبره ورأفته . ولكني أشك في أنه أحبني . كذلك أرتاب في أن من لهم مثل طبيعته من الرجال يقدرون على أن يدركوا حقيقة ما يكون في قلب المرأة من مشاعر وأظنك كذلك أدركت هذا مما عرفت من سلوكه . وعلى الرغم من ذلك عشنا في وئام؛ ولكني لن أغفل ذكر أمر واحد : ذلك أني إذا تدبرت في ماضي لا أستطيع أن أقول إني عشت عيشة سعيدة . إنني أدرك أني لم أحرم قط شيئا ؛ ومع ذلك فإني لم أذق ما كنت أنتظره من الحياة الزوجية من سعادة كاملة . وبعد أن انقضى عام ولد لنا غلام أحببته بكل ما في نفسي ؛ وشعرت أن هذا الحب قد عوض ما كنت أحس في عمق أنه فاتني من حياتي . لقد كان الطفل محور حياتي وبه شعرت بما للحياة من معنى ومن حقيقة : ولكنه مات بعد ذلك بثلاثة أعوام . وكان فقده مما لا يستطاع حمله . وليت شعري هل أحس بياداسا مثل ما أحسست لفقده ؟ لقد بكيت مصابي بضعة أشهر ؛ وإن ما أمدني به طفلي من معنى لحياتي ومن حقيقة لها قد ذهب بذهابه : وبات عقلي مشردا كما لو أنه انتزع

مما يمسكه إلى مرفأه ؛ وازداد فى نفسى ما كنت أشعر به من خيبة قبل مولد الطفل. وأحسست كذلك أنى أفقد فى سرعة إحساسى بالخوف والعار وذلك بسبب هذا الحزن الذى يغتالنى ؛ وبدا لى أن شعور القداسة نحو الحياة ونحو الزواج قد ذهب بددا

وأخذ يتقاذفنى التيار ، وأخذت أبحث عن اللذة أينما وجدتها ؛ ولم تعد تضايقنى أفكار ولائى نحو بيداسا ، وإنى أذكر ذلك الآن فقط فى غضب وفى شعور بالعار . صارت الشهوة عماد حياتى ؛ وإذ ذاك لقيتك وعرفتك

ولست أظن أن بيداسا قد فطن إلى شىء مما طرأ من هذه التغيرات على حياتى ؛ إنه لم يرفرف بين ما كنت أظهره له وأنا زوجة أمينة وبين ما كان منى حين أصبحت له خائنة . ولو أنه فطن إلى ذلك ، أجل لو أنه فطن إلى حقيقة أمرى لأمكن تجنب هذه الخاتمة — هذه المأساة !

لقد اتخذتك صديقا لى بدافع الرغبة أن أحقق معك ما تتوق إليه نفسى ، ولكن

ردك عسير المنتظر قد أحدث فى عقلى تغيرا تاما . إن مسلكك حيالى قد بين لى مبلغ خطأى . وإنى لأتبين ذلك الآن فقط ، وما أظن إلا أنى كنت عمياء طيلة هاتيك الأيام

إنى أشعر كما لو كنت أعترف بذلك كله لبيداسا ، وكما لو كنت أفتح صحيفة جديدة فى حياتى ؛ ولكن كيف أنتظر منه أن يفهمنى وهو الذى لا يدرى شيئا حول هذه الأمور ؟ حتى لو أنه غفر لى خطيئتى أترانى أرتاح إلى هذا ؟ ولئن كان مستعدا أن يتقبلنى الآن بجميع أوزارى ، فلقد كان يجب عليه أن يتهمنى حين كنت خائنة له . ألا ترى ذلك معى ؟ ولئن قدر أن يشعر الآن بالشفقة على ، فلقد كان عليه أن يغضب على الأقل من مسلكى حينذاك وإذا كان حينئذ لم يهتز قلبه وقتئذ ، أتراه يتحرك الآن ؟ إن الموت يبدو لى الحل الوحيد — المخرج الوحيد مما أنا فيه

وإنى آمل الآن أن تكون قد اقتنعت بأنك بريء »

محمود الخفيف